تمهيد:

يقول ابن جني رحمه الله في كتابه الخصائص" حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" و العربية هي لغة العرب التي بها يتواصلون، وينقسم العرب عبر التاريخ إلى ثلاثة أقسام وهم:

العرب العاربة : وهم العرب الذين ينتهي نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، ويطلق عليهم أيضا العرب القحطانية، ومنهم سكان اليمن والأوس والخزرج وغيرهم.

العرب المستعربة: وهم الذين ينتهي نسبهم إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ومنهم قريش قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم.

العرب البائدة: وسميت بائدة لأنها بادت أي فنت واندثرت، ومنهم ثمود قوم النبي صالح عليه السلام، وعاد قبيلة النبي هود عليه السلام قال تعالى:﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾[1] (الحاقة) ومنهم كذلك قبيلتا طسم وجديس، هما قبيلتان عربيتان اقتتلتا فيما بينهما حتى فنيتا، ومنهم كذلك العماليق وغيرهم . . .

وقد هيأ الله عز وجل الجو المناسب للهجة قريش حتى كانت أفصح اللهجات العربية على الإطلاق، وبها نزل القرآن الكريم.

ولم يكن العرب في الجاهلية وصدر الإسلام بحاجة إلى تعلم ودراسة القواعد النحوية أو الصرفية، لعدم الضرورة إلى ذلك لأنهم كانوا يتكلمون العربية الفصحى سليقة، بعيدة عن كل لحن أو خطأ، على حد قول الشاعر:

ولست بنحوي يلوك لسانه * ولكن سليقي أقول فأعرب**

و لكن لما كثرت الفتوحات الإسلامية واتسعت رقعة الإسلام، ودخل فيه غير العرب من فرس وروم وحبشة ، احتاج هؤلاء إلى تعلم العربية لأجل قراءة القرآن والتفقه في دين الله تعالى، فبدأ اللحن يدب رويدا رويدا إلى اللسان العربي سواء بين أهل العربية أنفسهم أو غيرهم من الأعاجم الذين أكرمهم الله بالدخول في دين الله.

[1] سورة الحاقة الآية:7

ومن أمثلة اللحن التي ظهرت في صدر الإسلام وكانت بمجموعهما سببا لبداية الدراسات النحوية وظهور هذا العلم نذكر:

– مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم يسيئون الرمي فقرّعهم فقالوا: " إنا قوم متعلمين" فأعرض عنهم مغضبا وقال: والله لخطؤكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم.

– وروي أن رجلا أقرأ أعرابيا من سورة التوبة قوله تعالى:﴿ أن الله برئ من المشركين ورسوله﴾(**التوبة**)، (**بجر رسوله**) ، فقال الأعرابي: أوقد برئ الله من رسوله؟ إن يكن قد برئ الله من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ ذلك سيدنا عمر رضي الله عنه فدعاه، وقال: ليس هكذا يا أعرابي، فقال كيف هي يا أمير المومنين؟ فقال:(أن الله برئ من المشركين ورسولُه)(التوبة)، (برفع رسوله) فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم، فأمر عمر رضي الله عنه ألا يقرئ القرآن إلا عالم بالعربية.

– ثم القصة التي يعتبرها الكثيرون السبب المباشر لبداية الدراسات في هذا العلم وهي ما نقل عن أبي الأسود الدؤلي أن ابنته رفعت وجهها إلى السماء وتأملت بهجة النجوم وحسنها، ثم قالت : ما أحسنُ السماءِ يا أبت؟

فقال لها: نجومُها .

فقالت: إنما أردت التعجب

فقال لها: قولي:" ما أحسنَ السماء وافتحي فاك.

فعند ذلك هرع أبو الأسود إلى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وقال له : يا أمير المومنين اختلطت ألسنة العرب بالعجم وإني أخشى على كتاب الله من الضياع فاصنع شيئا .

فقال له الإمام علي رضي الله عنه ائتني بقرطاس ودواة ، ثم كتب له بسم الله الرحمن الرحيم وأعربها له ثم قال له كلام العرب لا يخرج عن ثلاث: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ثم قيل فيما يروى أنه كتب له بعض مسائل النحو ثم قال له : انح هذا النحو يا أبا الأسود . ثم تواصل البحث والتأليف في هذا العلم حتى ظهرت مدرستا البصرة والكوفة ولكل منهما أعلامها، ثم ظهرت بعد ذلك المدرسة البغدادية ثم المصرية.

ويرجع السبب في ظهور البدايات الأولى لهذا العلم في تلك المناطق لمتاخمتها لأرض الأعاجم وبالتالي سرعة اللحن إليها، أما سكان شبه الجزيرة العربية فكانوا أبعد الناس عن ذلك ، فقل بذلك اهتمامهم بتلك الدراسات.

ويعد الكتاب أول مصنف في النحو لمؤلفه " عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه، وكل من ألف في النحو بعده يعتبر عالة عليه، وقد أثنى عليه بعضهم قائلا:

لقد صلى الإله صلاة صدق * على عمرو بن عثمان بن قنبر**

فإن كتـــــــابه لم يغن عنه ***بنوا قلم ولا أبنـــــاء منبر

ثم توالت الدراسات بعد ذلك في هذا العلم تقعيدا للقواعد من خلال تتبع واستقراء كلام العرب تأليفاا للمتون المنظومة والمنثورة ووضع الشروح والحواشي لها، حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها الآن.

فالنحو العربي علم من العلوم المتعلقة باللغة العربية، وهو من علوم الآلة أي لا يدرس لذاته بل هو وسيلة لغيره، ولدراسة أي علم من العلوم ينبغي للطالب أن يكون على دراية بمبادئ هذا العلم، وهذه المبادئ التي ينبغي معرفتها جمعها بعضهم في قوله:

إن مبـــــادي كل فن عشرة * الحد والموضوع ثم الثمـــــــرة**

وفضلـــــــه ونسبة والواضع * والاسم الاستمداد حكم الشارع**

مسائله والبعض بالعض اكتفى * ومن درى الجميع حـــاز الشرفا**

أولا: الحد: حد الشيء تعريفه ، والتعريف نوعان لغوي واصطلاحي ، فالتعريف اللغوي يؤخذ من المعاجم، أما الاصطلاحي فيؤخذ من الكتب المتعلقة بهذا العلم، وينبغي للتعريف الاصطلاحي أن يكون "جامعا مانعا" أي جامعا لخصائص وصفات المعرف به مانعا من دخول غيره معه متلبسه به.

تعريف النحو لغة: يطلق النحو في اللغة على معان عدة ، جمعها بعضهم في قوله:

نحونا نحـو دارك يا حبيبي * وجدنا نحو ألف من رقيب**

وجناهم جياعا نحو كلب * تمنوا منك نحوا من شريب**

فكلمة نحو في البيتين السابقية أتت بمعان عدة :

1 – القصد: نحونا .

2 – الجهة: نحو دارك.

3 – المقدار: نحو ألف.

4– المثل: نحو كلب.

5 – النصيب: نحوا من شريب.

تعريف النحو اصطلاحا: هو قواعد يعرف بها أحوال أواخر الكلمات العربية التي حصلت بتركيب بعضها مع بعض من إعراب وبناء وما يتبعها[2].

وعرفه ابن جني بقوله: "هو انتحاء سَمْت كلامِ العرب في تصرفه من اعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطقَ بها وإن لم يكن منهم وإن شذّ بعضهم عنها رُد به إليها"[3]

ثانيا: الموضوع: وهو المجال المحدد الذي يبحث فيه العلم، وموضوع علم النحو الكلمات العربية من جهة البحث عن أحوالها المذكورة.

ثالثا: الثمرة: هي الغاية أو الفائدة التي يحصلها دارس العلم ومتعلمه في الدارين، وثمرة تعلم النحو صيانة اللسان عن الخطأ في الكلام العربي، وفهم القرآن الكريم والحديث النبوي فهما صحيحا .

رابعا: فضله: ويعني به ما للعلم من منزلة وشرف وأهمية بين العلوم، فللنحو منزلة عظيمة من بين علوم اللغة إذ به تحفظ الألسنة عن اللحن في القول وبه يتوصل إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو نعم المعين للأصوليين أثناء استنباطهم القواعد الكلية من أدلتها الشرعية، ولايمكن لأي طالب علم أن يستغني عنه فهو كما قال بعضهم قنطرة (جسر) لجميع العلوم:

---

[2] أحمد الهاشمي، القواعد الأساسية للغة العربية، ص:9.

[3] ابن جني ، الخصائص، ص:ج:1،ص:34.

النحو قنطرة إلى العلـــــوم وهل ***يجاز بحر على غير القنـــــاطير

إن النحاة أناس فـــــاق مجدهم * بين الأنـــــام جميعا كالقناديـل**

فهل سمعتم بذئب خـاف من غنم * أو الأسود تذل للخنازيـــــــر**

إن الكلام بلا نحـــــــــو يزينه * نبح الكلاب وأصوات السنانير**

يقول أحمد الهاشمي" أفضل العلوم ما كان زينة وجمالا لأهلها، وعونا على حسن أدائها، وهو علم العربية الموصل إلى صواب النطق، المقيم لزيغ اللسان الموجب للبراعة المنهج لسبل البيان بجودة الإبلاغ، المؤدي إلى محمود الافصاح وصدق العبارة عما تجنه النفوس وكنه الضمير من كرائم المعاني وشرائفها، وما الإنسان لولا اللسان؟ وقد قيل المرء مخبوء تحت لسانه، والإنسان شطران لسان وجنان.

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ***فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وبالنحو يعرف صواب الكلام من خطئه، ويستعان بواسطته على فهم سائر العلوم:

النحو يصلح من لسان الألكن ***والمرء تكرمه إذا لم يلحن

وإذا طلبت من العلوم أجلها ***فأجلها نفعا مقيم الألسن

وقال عبد الملك بن مروان : اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه ، وأوصى بعض العرب بنيه فقال: يا بني أصلحوا ألسنتكم فإن الرجل تنوبه النائبة فيتجمل فيها فيستعير من أخيه دابته، ومن صديقه ثوبه، ولا يجد من يعيره لسانه، وقال أبو هلال العسكري: علم العربية على ما تسمع من خاص ما يحتاج إليه الإنسان لجماله في دنياه، وكمال آلته في علوم دينه، وعلى حسب تقدم العالم فيه وتأخره يكون رجحانه ونقصانه إذا ناظر، أو صنف[4].

خامسا: نسبته: صلة العلم وعلاقته بغيره من العلوم، وعلم النحو من علوم الآلة المتعلقة باللغة العربية.

سادسا: الواضع: المقصود به أول من ابتدأ التصنيف في العلم، ووضع أساسه، فالمشهور أن أول واضع لعلم النحو هو أبو الأسود الدؤلي (عمرو بن ظالم) بأمر من الإمام علي رضي الله عنه.

[4] ينظر أحمد الهاشمي ، القواعد الأساسية للغة العربية،ص:7.

سابعا: الاسم: الألقاب التي أطلقها أهل هذا العلم عليه لتمييزه عن غيره، فقد استنبط علماء هذا الفن تسميته بعلم المحو من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الأسود "انح هذا النحو".

ثامنا: الاستمداد: أي الروافد والمصادر التي يستقي منها العلم مسائله ومطالبه، وعلم النحو يستقي مسائله من تتبع واستقراء كلام العرب الفصحاء.

تاسعا: حكم الشارع: ويقصد به الحكم الشرعي لتعلم هذا العلم من بين الأحكام الشرعية التكليفية الخمسة(فرض، مندوب، محرم، مكروه، مباح)وتعلم النحو فرض من فروض الكفاية ، وربما تعين تعلمه على واحد فصار فرض عين عليه.

عاشرا: مسائله: وهي المطالب التي يبحثها ويقررها العلم والتي تندرج تحت موضوعه.